معالم المدن العراقية في رسائل نازك الملائكة

الحلقة الاولى

اعدتها للنشر: احسان الملائكة

الى شقيقتها سها الملائكة
البصرة في ١٠-٢-١٩٤٧

عزيزتي سها
ها انا أبر بوعدي فأمسك بالقلم لأسجل طائفةً من الحوادث العابرة التي مرت بي وبمن معي، خلال سفرنا الطويل عبر القسم الجنوبي من العراق، نحو البصرة، بلد النخيل وربيبة شط العرب المتكون من التقاء دجلتنا وفراتنا الحبيبين.
حسن... لقد انطلق بنا القطار الرومانسي في السادسة والنصف من بغداد،ولا أكتمك انني رغم المرح الذي كان يحيط بي، قد عثرت على كآبتي الطبيعية في منظر الشمس الغاربة الشاحبة، وفي جموع المودعين على رصيف المحطة، ثم وجدتها في اعماق نفسي!
ولما تحرك القطار، يشقّ قلب الليل الى البصرة، اتكأت على النافذة ورحت أرقب الظلام الدامس غافلةً عن الحوار الذي يدور بين رفيقاتي وأنت تعلمين بمقدار شغفي بالظلام والسكون ولا عجب فأنا عاشقة الليل، وتستطيعين أن تتخيلي مقدار اندماجي في مثل ذلك الجو أن كان مصحوباً بنغمة القطار، ونقيق الضفادع الذي يتعالى كلما وجد الماء في تلك القفار المجدبة. ست عشرة ساعة ياصديقتي الصغيرة سها، ونحن نطوي تلك القفار، وان كانت عشر الساعات الأولى ليلاً وماتبقى نهاراً. وكم يروقني أن أصف لك الحماسة التي اعترت قلبي عندما راقبت طلوع القمر ثم شروق الشمس خلال ذلك، فمن قلب الظلام الدامس أنبثق ذلك القلب الحي الذي نسميه بلغتنا ((القمر))، فسيطر على عواطفي بيد من حديد، وحملني على جناحيه الى عالم الأحلام الشعرية وهناك ألقاني بعد أن زوّدني بجناحيه!! والفجر يأختي، الفجر في تلك القفار الممتدة الى مدى الطرف شيء سحري لا أحسب قلمي البشري قادر على الاحاطة بالجزء الاصغر من معانيه ولذلك أقف مما أريد عند هذا مقتنعة بأن أحدثكِ عما سواه من مشاعري. وقد حدث أن تناولنا طعام العشاء في بلدة الهندية، وطعام الفطور، الصباح في مكان بين الناصرية والشعيبة وبين هاتين المحطتين مسيرة خمس ساعات بالقطار، وليس من مدينة بينهما تحمل اسماً، يسجل هنا.
على أن الذي أضجرنا كان ضجة القطار صفيره ودوي العجلات وقد نام الجميع الا انا واحسان وأديبة، فقد حال وجودنا في القطار دون ان نغمض أعيننا ولو للحظة واحدة.
وصلنا البصرة في تمام العاشرة والنصف. وهبطنا على رصيف المحطة غرباء حيارى، وأخيراً علمنا أن مديرية المعارف تنتظرنا في ثانوية البنات. ولما بلغنا المدرسة وجدنا مدير المعارف نفسه في انتظارنا في أول الجسر المؤدي الى المدرسة. وقد أشرف بنفسه على نقل حقائبنا الى المدرسة، وغمرنا بلطفه، وكانت تنتظرنا في المدرسة المعاونة واحدى المدرسات ومجموعة من الفراشات.
وأعدت لنا غرفة كبيرة كانت فيها تسعة أسرة مريحة. إني لعاجزة عن وصف اللطف الذي لمسناه طيلة اليوم في أهل البصرة، فقد ظهر لنا أنهم قوم نبلاء مهذبون. ويخيل الي ان جمهورية أفلاطون لو صح أن تقوم يوماً في العراق لما حمل لواءها إلا أهالي البصرة! وراقني في البصرة نظافتها ونظامها رغم الفقر الذي يبدو عليها وقد أطلقت على المدينة أسم ((مدينة الدمى)) لأن بيوتها منخفضة جداً باستثناء المحلات الجديدة في ((العشار)) وفي العشار جلسنا على ضفاف شط العرب الساحر، وكان المد قد بدأ يرتفع فافتتنا بالمنظر أشد الافتتان. أنا الان متعبة لكن أوثر أن أتم الرسالة لأرسلها صباح الغد لأني أدرك مخاوف والدتي ويهمني أن تطمئن على سلامتنا.
مدير معارف البصرة معتن أشد الاعتناء بتوفير أسباب الراحة لنا. أنا واحسان في صحة جيدة، وأظنها ستكتب اليكم صباح الغد لتحدثكم عن خواطرها هي.
حوادث الغد وما بعده ستأتيكم أنباؤها في رسائل قادمة، وسوف نذهب الى القرنة والزبير وابي الخصيب والمعقل.
في نفسي وروحي قصائد كثيرة قد أكتبها في الأيام القادمة أبرقتُ اليكم ظهر اليوم، وأملي أن تكون البرقية قد وصلتكم..
-أختك نازك.

الى شقيقها عصام الملائكة
البصرة ١٢-٢-١٩٤٧

عزيزي عصام، أصل بهذه الرسالة ما انقطع من حديثنا الذي نقلته في رسالتي الى سها، وسأبرق اليكم قبل مغادرتنا البصرة لتستقبلونا في المحطة.
مضى علينا في مدينة النخيل والمد والجزر والجسور المتعددة يومان ونصف زرنا خلال ذلك القرنة وابي الخصيب والعشار والمعقل والميناء ببواخره الهائلة التي ترسو فيه، وزرنا فندق شطّ العرب والمطار وشارع الكورنيش، وذهبنا الى السينما وشاهدنا شريطاً سخيفا هو ((قضية اليوم))، ونحن الآن مرتبطون بدعوتين الى الزبير، وفي نيتنا الذهاب الى الفاو لمشاهدة البحر ومصبّ شط العرب الجميل.
تلقيت من عزيزتي سها رسالة حلوة ملأتني فرحاً.. لستِ أدري أوصلتكم رسالتي وبرقيتي؟ بمجموعة من القرى.((الكَرمة)) ((الهارثة)) ((الشرش.. الخ وهي قرى تعيش فقراً مدقعاً وبيوتها جميعاً أكواخ لاغير مع انها غنية غنى هائلاً بالماء. وهل في البصرة كلها قرية تفتقرالى الماء؟ وحسبك صورة من ذلك اننا في طريقنا الى أبي الخصيب عبرنا سبعة عشر جسراً!! وفي القرنة تم اللقاء بين الفرات ودجلة بعد فراقهما. ووقفت على شاطئ الملتقى أراقب الماء المختلط. ماء دجلة الاحمر وماء الفرات الأزرق، ومن عجب ان المائين لا يختلطان بل يبقى بينهما خط فاصل بين الماء الاحمر والماء الأزرق! وشربنا من ماء النهرين، فكان ماء الفرات غريباً، وماء دجلة كما نعهده في بغداد وأهالي القرنة يحبون ماء دجلة، ولا يستعملون ماء الفرات الا للسقي وما أشبه.. وكان أحبّ ما قابلني في القرنة أنها تقع على دجلة والفرات وشطّ العرب جميعاً!! ويقع ((نادي الموظفين)) في الزاوية حيث يلتقي النهران تماماً. وقد التقطت عدة مناظر طبيعية بآلة التصوير. في المكان. وأحببت في القرنة نساءها النشيطات اللواتي يقمن بأكثر أعمال الرجال، حتى أن بعضهن يشتغلن بأعمال البناء. وحدثتني أحدى نساء القرنه أن البدريات قد تسابقن بالزوارق مرةً في محضر الوصي على العرش! وكدتُ أكتب قصيدة حينما شاهدت: الدلو البسيط البديع على ضفاف الفرات،لكن ثقْ يا عزيزي عصامَ أنني لم أكتب في البصرة بيتاًواحداً من الشعر على افتتاني بجمالها، والسبب انني لا اجد وقتاً أخلو فيه بنفسي لاسيما ونحن في حركة دائمة..
وزرنا أيضاً رصيف الميناء، ودخلنا احدى البواخر الهائلة، وشهدنا الآلات الرافعة الضخمة التي تنقل الأثقال من السفن القادمة الى الرصيف، وكان في صحبتنا أحد موظفي الميناء، يمهد لنا السبيل ويشرح الأماكن والآلات، وقد عرفنا هناك أحد أقاربنا، والمخجل انني لم أعرفه لولا ان احسان تداركت الأمر وذكّرتني به! ثم اننا حصلنا على رخصة خاصة من مدير المطار المدني Air port، وكان دليلنا موظف آخر، سار بنا خلال ساعة ونصف في فندق شط العرب الارستقراطي الجميل، وفرجنا على المطار ومراصده، وغرفة الاسلكي وآلاتها الدقيقة، ثم هبط بنا المصعد الكهربائي الى الطابق الأرضي. والتقطنا صوراً كثيرة في الميناء وفي فندق شط العرب. بعد ظهر اليوم ذهبنا الى أبي خصيب وهي أكثر المواضع نخيلاً وأنهاراً، لكن ماء الشرب فيها يباع بيعاً. وقد أبينا أنا واحسان الهبوط في زورق في حين فعلت ذلك بعض الزميلات، فنحن كما ترى يا عصام نتمسك بنصائح والدتي الى حدّ تضحك منه بعض زميلاتي المدرسات!
انا مشوقة الى سماع أخباركم، وقد ساعدني ان رسالة سها العزيزة كانت قصيرة جداً. كيف حال مكتبتي وعودي؟ حافظوا بالله عليكم كذلك على اسطوانات جايكوفس كي وبيتهوفن!
أرجو أن تطمئن والدتي الى اننا مرتاحون تماماً هنا، واني أنا خصوصاً، موضع عناية الزميلات كلهن، حتى أنني أصبت بصداع ذات ليلة في الساعة التاسعة ليلاً، فخرجت زميلتان رفيقتان الى السوق وأحضرنا ((نومي بصره)) وصنعتا لي منه شايا، وأيقظتاني من نومي لأشربه! كل هذا اللطف والحنان من أجل مخلوقة لاتفيد أحداً مثلي!! أما أحسان فهي تقوم بكل مايلزم لي ولها الى حد يخجلني، وأنا لااريد على أن أبعثر ماني الحقائب.
مدير المعارف الكريم يتصل بنا كل صباح فيسألنا عما نحتاج، وعن خطتنا لقضاء اليوم. ومن ثم يمهد لنا السبيل، وفي المساء يتصل بنا من جديد سائلاً ((هل تعبتن؟ أتردن شيئاً؟)).
والواقع ان هذا اللطف عام في البصرة كلها، وقد لقيناه عند السكان كلهم، وهم قوم وادعون، يتمثل فيهم سلام الجو وصفاء النخيل وكرم الأرض، وأؤكد لكم انني لم أسمع كلمة شتم واحدة منذ دخلنا البصرة.
أنا الان في غرفة مدير المدرسة، وفي غرفة بعيدة عني تجتمع الزميلات في لعبة مضحكة لا أعرف كنهها. وقد أثرت أنا على العادة أن أكتب وأطالع، معي الأن رباعيات الخيام ترجمة السباعي، وكتاب ((بين المد والجزر)) للآنسة مي، أما أحسان فهي غير مشتركة في اللعب، وقد آثرت هي وبعض الزميلات الخروج في زيارة لدار احدى تلميذاتي في البصرة من أجل الاستماع الى الراديو.
عزيزي عصام، عذراً عن خطي الردئ في هذه الرسالة فأنا اكتب بسرعة هائلة.

مع السلامة... أختك نازك

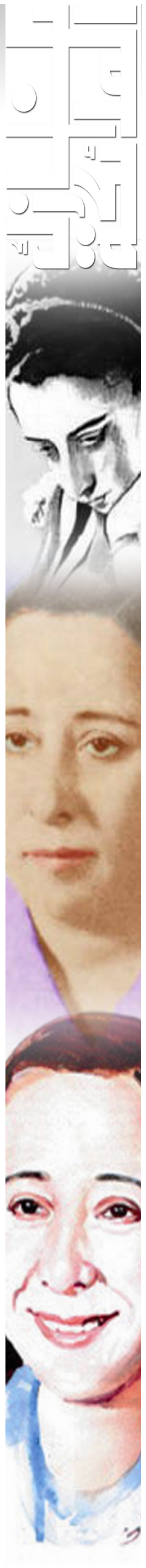

انا مشوقة الى سماع أخباركم ، ... كيف حال مكتبتي وعودي؟ حافظوا باللّه عليكم كذلك على اسطوانات جايكوفسكي وبيتهوفن!

كان من أحلى ما شاهدتُ في البصرة منظر النخيل.. فأينما يمم المرء طالعته آلاف وآلاف من اشجار النخيل الوديعة الباسمة.. نخيل.. نخيل.. نخيل، حتى المدرسة التي نسكنها تقع بين النخيل، وأنا بنزعتي الشعرية الرومانتيكية مغرمة بالنخيل ولذلك أحببتُ البصرة. ثم راقني منظر الموضع الذي يلتقي فيه الأخوان الصديقان دجلة والفرات، القرنه التي تبعد عن البصرة ساعتين ونصف بالسيارة فقد ذهبنا أمس الى القرنه ومررنا في طريقنا اليها

أحببت في القرنة نساءها النشيطات اللواتي يقمن بأكثر أعمال الرجال ، حتى أن بعضهن يشتغلن بأعمال البناء. وحدثتني أحدى نساء القرنه أن البدريات قد تسابقن بالزوارق مرةً في محضر الوصي على العرش!

إني لعاجزة عن وصف اللطف الذي لمسناه أهل البصرة ، فقد ظهر لنا أنهم قوم نبلاء مهذبون. ويخّيل اليّ آن جمهورية أفلاطون لو صحّ أن تقوم يوماً في العراق لما حمل لواءها إلا أهالي البصرة!

وفي القرنة تمَّ اللقاء بين الفرات ودجلة بعد فراقهما. ووقفتُ على شاطئ الملتقى أراقب الماء المختلط . ماء دجلة الاحمر وماء الفرات الأزرق ، ومن عجب ان المائين لا يختلطان بل يبقى بينهما خط فاصل بين الماء الاحمر والماء الأزرق! وشربنا من ماء النهرين ، فكان ماء الفرات غريباً ، وماء دجلة كما نعهده في بغداد وأهالي القرنة يحبون ماء دجلة ، ولا يستعملون ماء الفرات الا للسقي

كان من أحلى ما شاهدتُ في البصرة منظر النخيل.. فأينما يمم المرء طالعته آلاف وآلاف من اشجار النخيل الوديعة الباسمة.. نخيل.. نخيل.. نخيل ، حتى المدرسة التي نسكنها تقع بين النخيل ، وأنا بنزعتي الشعرية الرومانتيكية مغرمة بالنخيل ولذلك أحببتُ البصرة. ثم راقني منظر الموضع الذي يلتقي فيه الأخوان الصديقان دجلة والفرات